المحكمة

بقلم : عبد العال الحمامصى

قاعة المحكمة مكتظه بناس ذوى اشكال واحجام مختلفة .. لا شيء مشتركا بينهم سوى شراهة الفضول.. وأنا قابع فى القفص الحديدى «أهرش. جرحا ملتئما فى ساعدى الأيسر ، وأتأمل وجوههم بشتى الانفعالات البادية عليها وهم يحملقون فى بشراهة حتى لأنوهم نفسى كائنا هلاميا قذف به الى الارض احد الاطباق الطائرة !!

نظراتهم تعرينى .. تبدو وكانما توشك ان تنقض على وتفترسنى . نظرات دائبة بعضها تطل منه الحيرة.

ويعضها يحقق بالفصول .. بعضها يرى لى . وبعضها لا يكتم العداء !« وامراة بدينة اخرجت ثديها المترهل من فتحة جانبيه فى ثوبها المتسخ وطفقت تلقمه رضيعهـا الملفوف فى « قماطه » الذى تناثرت عليه « ربالته » ! .. وتهمس فى اذن جارتها الصغيرة بكلام غريب يتحدث عن الخديعة . و « المقلب » الذى شربته . والقلوب التى تحجرت فى هذا العالم !!

مقلب .. وخديعة .. عن اى مقلب تتحدث المراة البدينة ؟!

خدعت .. ربما .. اخذوا يخدرونني بكلماتهم الضخمة . الشرف . العار . التقاليد كرامة العائلة .. رجولتى .. وواجبى .. ! ان احتمال اعدامى لايهولنى بقدر ما يعذبنى احساس بانى تخليت عن القيم التى كنت افخر بها .. ومن اجلها واجهت الكراهية والعذاب . كيف استجبت لهم هكذا ببلاهة ؟ كيف !

وازاحت المراة البدينة فم رضيعها وبدت حلمة الثدى محمرة ومتورمة من الامتصاص .. اقذعتنى الى حد الغثيان ! مازالت النظرات تلاحقنى .. وددت لو كان بيدى سيخ ملتهب افقأ به جميع تلك العيون المصوبة نحوى كانها فوهات بنادق ..

لماذا لا ينتهون .. وما فائدة كل هكذا .. قتلتها واعترفت .. فما جدوى أن يعرضوننى هكذا لعيون الآخرين بنظراتهم المسعورة ؟

قتلتها .. سلوى .. اختى المبدعة الفاتنة .. القلب الذى كان يعطينى الحب .. والحنان والمشاركة .. قتلتها بوداعتها وصباها .. كيف بيدى انتزعت

وهم يعرضونه على .. وترددت .. انا تعرض على هذه المهمة ؟ غريبة !؟ من اين جاءتهم الثقة فى اننى سأوافق .. منذ متى كنت رجلا فى نظرهم .. دائما كانوا يعتبرونني « خرعا » لا يصلح لمواقف رجولة .. دائما كانوا يبعدونني عن مشاكلهم ومعاركهم مع العائلات المنافسة لاننى فى نظرهم لا اصلح الا لتمشيط شعرى . وقراء المجلات .. دائما كانوا يسخرون من طراوتى التى تشبه بسلوك بنات الذوات .. ! عندما كنت صغيرا اذهب الى الحقول مع اطفال العائلة كان ابناء اعمامى يعايرونني كلما وجدونني قد استغرقت حالما !صغى لخرير المياه فى الجداول .. أو أربت بيدى فوق رؤوس الكلاب بينما يمارسون هم العابهم العنيفة ويتربصون ببنادقهم للذئاب فى حقول القصب .. أو يقومون بعمليات سطو على الحقول المجاورة ليسرقوا البطيخ .. او يتلفون زراعة من يختلف الكبار معهم .. !

حتى « جليلة » صغرى بنات عمى الأكبر كانت تمسك بخصلات شعرى وتنكشها « وتنكشها » فى سخرية لتؤكد بأننى تماما أشبه امى .. نعم .. لم يكن احد ينادينى ابدا باسمى .. كانوا ينادوننى على الدوام بقولهم « ابن سميرة » .. ابن امى !!

فمن أين اتتهم الثقة فى اننى يمكن ان اصبح بطلا هكذا بلا مقدمات لأقتل .. واختى بالذات .. .وهم يعلمون فرط حبى لها وشغفى بها .. قلت لهم اننى لا استطيع ان اكون قاتلا مهما كانت الأسباب .. وقذف بها حسن ابن عمى متهكما .. الم اقل لكم ..

كنت أتوقع ذلك .. ذيل الكلب لا يمكن ان يتعدل ابدا .. حضرته ينفع بس يكتب مواويل !! ولكزه عمى فى جنبه معترضا .. وانطلق يردد الاسطوانة .. العار كلام الناس .. شرف العائلة .. وواجبى .. فليس هناك من هو احق منى بازالة هذا العار .. وترددت .. أختى ولياليا .. والعشرة .. وقلبها الذى يحتوى افراح انتصاراتى .. واشجان هزائمى اى جنون سول لى الموافقة ...

كانت مستلقية فوق فراشها وتحت راسها وسادة يتمرغ فوقها شعرها الفاحم المتموج وقد استغرقت فى قراءة قصة مترجمة من تلك القصص التى كانت شغوفة بها .. ودخلت عليها بهدوء وانا اغلق الباب خلفى واحاول السيطرة على اعصابى.. لابدو طبيعيا بينما سوس التردد ينخر فى مشاعرى. نظرات الى وحسبت الأمر مجرد هموم صغيرة كتلك التى تعودت أن افضى اليها بها ..

ـ مالك ياوجدى .. زعلان من ايه»!

ـ ابدا يا سلوى .. مفيش حاجة. شوية صداع بس .. خلصتى الراوية .. اصل « مدحت » عاوزها .. سالنى عليها ..

ـ ايوه قربت .. على فكرة مدحت ماله اليومين دول مش عايز يبجى عندنا كمان ملاحظة أن تصرفاته مش طبيعية خالص ..

أكد لى تهافت نبراتها فى سؤالها عنه. ووميض اللهفة الذى شع من عينيها عندما سمعتنى اذكر اسمه صدق مازعموه لى عن علاقتها به .. ان الخطابات التى وقعت فى ايديهم هذه الخطابات لاتؤكد وجود علاقة آثمه .. انها تتحدث عن الحب والاشواق واحلام الغد .. وعندما قلت لهم هذا ثاروا فى وجهى .. حب .. ! ومنذ متى كانت عندنا بنات تحب .. ! واخذوا يؤكدون لى بأن قرار قتلها قدوافقت عليه العائلة بأجمعها .. وان مهمة التنفيذ اذا كانت قد القيت على عاتقى فلانى أجدر العائلة بذلك .. وان عارها يلحق بى قبل اى واحد منهم .. فاذا امتنعت فليس معنى هذا ان يبطل القرار .. فالبلدة كلها تتهامس بالفضيحة .. واين يمكن لرجال « عائلة الشرقاوى »ان يخفوا شواربهم .. سينفذ القرار قمت بالمهمة أم ابيت .. وفى هذه الحاله ستعلن العائلة انها تبرات منى .. لا ياحسن .. لن ادع يدك الغظة تمسها .. بيدى انا تموت .. لابيدك ايها الجلف الموتور .. لن ادعك تقتلها ياحسن .. لن ادعك تشفى غليلك منها لانها رفضت بشجاعة وكبرياء أن تتزوج من وحش مثلك .. لا يا حسن لن تكون نظرتك الشامتة المتوحشة آخر ما تراه سلوى فى هذا العالم ! » .. ودنوت منها كأنما لارى الى أى صفحة وصلت فى قراءتها .. وفجأة وفى جنون ولأحسم التردد الذى بدا يخرب اراداتى امسكت بخصلات شعرها والى الخلف لويت رقبتها .. واغمدت السكين حتى النصل فى صدرها .. وتفجر الدم .. الدم .. الجنون الاشباح .. عقلى .. قوة ماتنتزعه . طبقات من الضباب تتراكم فوقه .. وسلوى تتدحرج من فوق سريرها .. تتلوى غارقة فى دمها .. وفى نظراتها

كالعتاب . وبلا حقد !! وامى تخبط الباب الذى احكمت رتاجه حتى تكسره ..

ـ احنا فلاحين يا امه .. وصعايده ! ..

ـ عملوها فيك ياابنى .. يا خراب بيتك يا سميرة .. سلوى .. حبيبتى .. كبدى انا امك يا حلوة .. كلمينى يا سلوى .. ردى على ماما يا سوسو ..

واحتضنتها بالدم تبكى وتصرخ فى التياع وتمزق .. وتعفر راسها فى بلاط الحجرة الذى اصطبغ بدمها .. تطفر من اعماقى اشباح .. فاجرى ملتاثا .. مهبولا .. ثم اعود لاتهالك على الجسد الراكد فى دمه وقد سكنت تماما اختلاجاته .. اقبله .. الثغر الوجنات .. الشعر .. الصدر .. فى جنون . ثم انهض واجرى من جديد واعود لاخبط فى الجدار راسى .. وتتزايد الضجة ولا اعود اشعر بشىء .. عربة البوليس تقلنى والقيد فى رسغى .. وصرخات امى تلاحقنى .. وعويل الجيران .. والاشباح . واختى غارقة فى دمها !!

***

والذكريات .. موت ابى برصاصات معادية اطلقها عليه احد خصوم العائلة انتقاما لثار قديم .. والكراهية التى كانت تواجهنى من عائلة ابى الذى تزوج برغمهم من قاهرية غريبة احبها وهو يطلب العلم فى الازهر تاركا ابنة عمه التى كانت مخطوبة له . كانوا يكرهوننى تعذبت من اجل ان تصمد لمؤامراتهم .. وأحلامى . وزملائى فى الجامعة الذين كانوا يسخرون منى . من «صعيديتى» وتحفظى وانطوائى . والبنات اللواتى كنت ارتبك امامهن وينز وجهى عرق الخجل لو سالتنى احداهن عن موعد المحاضرة .. او طلبت منى ان اعيرها كراستى ، والقصائد كنت اكتبها وابثها ذوب روحى .. وغربتى .. وزميلتى المحررة بمجلة نسائية فى نفس الوقت والتى كانت حلم عمرى ولكنى اضعتها بخجلى وتحفظى وخوفى من جراتها المتحدية .. والكتب التى كنت اعيش معها اكثر مما اعيش مع الحياة ! كانت الكتب عالمى .. والأغنيات التى كنت اسمعها بكل ذرة فى كيانى والدموع فى قلبى .. وليلى مراد .. التى كنت اعشق صوتها واتخيل اننى سالتقى بها ذات يوم وتحبنى .. مع اغانيها كانت روحى تجد دنياها !!

ودلفت الى « العنبر » كان مليئا بالساجين من أعمار متفاوتة..وقبعت فى صمت تحت جدار بدون ان التفت اليهم .. وهرع الجميع يسالون ما خطبى .. كنت تائها .. سلوى بدمائها كانت امامى !!

ـ دا .. باين عليه ذواتى !! قالها احدهم وابتعدوا عنى !!

فى الليل انطلق الساجين يتغنون بمواويل عن ادهم الشرقاوى..وحسن ونعيمة .. ثم انزوت كل « شلة » فى ركن تثرثر حول « التعيين » والبق .. والشاويش عبد الباسط والبنت ذات العشرة اعوام التى اخذت ثار ابيها ..

ويسألوننى : احك شيئا .. قل حاجة وخليها على اللى فوق.. ولا أجيب ..
ـ أمال .. كنت فاكر السجن ايه .. سيما ياروح أمك ! ..

قالها سجين أعور .. ومن جديد ابتعدوا عنى

واندفع الحاجب يهدر .. «محكمة» فى انتفاضة متشنجة .. لامبرر لها اطلاقا .. وتطلع الجميع الى المنصة ماعداى .. كنت مشغولا احدق فى وجه المراة البدينة وهى تتجول بنظراتها القلقة ما بين هيئة المحكمة والقفص الذى يحتوينى .. غريبه .. لم أهتز لم انتفض لرؤية هيئة المحكمة .. ربما لأننى وطنت نفسى على كل الاحتمالات ! نظرت الى القاعة وقد وفد اليها آخرون.. بينهم اعمامى..عمى الأكبر. هذا العتل الأشيب بذقنه الكثة .. ومسبحته . كم ابغضه .. حج بيت الله الحرام ثلاث مرات ويقتل القتيل ويسير فى جنازته. لقد عذب امى كثيرا بكبريائه وتعاليه..لم يغفر لها ابدا أنها تزوجت أبى برغمه .. عمى .. انا على استعداد لأن أخلد فى الجحيم مقابل ان يدعوننى الآن انتف ذقنه هذه .. شعرة .. شعرة .. وامى .. امى لماذا لم تأت لماذا .. انى احتفظ بدموع لا اريد أن اذرفها الا عندما تأتى ..

وقام رجل غليظ الأنف .. صارم الوجه وظل يتكلم طويلا عن الجريمة ونذالة دوافعى اليها .. والضحية البريئة . الزهرة المثقفة التى سحقتها بخسة قربانا لمطامعى فى التركة .. ثم انطلق يتلو تقرير الطبيب الشرعى مؤكدا بأن فعلتى لا يمكن أن يكون الانتقام الشرف هو سببها .. ولهذا فانه يناشد المحكمة فى الا تأخذها بى شفقة ! . لم يحنقنى عليه كونه طالب بأعدامى .. انها مهمته .. مورد رقاب للسيد عشماوى .. غاظتنى منه حذلقته .. وضغطه على كلمات ضليعة معينة .. وكونه دائب ينظر الى طيلة مرافعته وكأننى فى نظره لا أكثر من حشرة !..

وأمر الرئيس باحضارى الى المنصة وأخذ يستجوبنى وأنا صامت كأنما بوجه اسألته الى انسان لا يعنينى ... وغاظه برودى فأخذت لهجته تشتد وصوته يتوتر فى حنق ..

وأخيرا ولمجرد أن أتخلص من الموقف قررت ان أقول شيئا ..

ـ كل ما أعرفه أننى قتلتها ..ـ قتلتها .. لأرث التركة وحدى دبرت الأمر على ان تظل الجريمة مجهولة .. لم يكن فى خاطرى أن صرخات امى ستأتى بالجيران .. وسرت فى القاعة همهمات ناشزة .. ودنا منى المحامى يهمس فى اذنى ان هذا التصرف من جانبى بمثابة الانتحار .. ليكن ! ..

وعدت من جديد الى القفص .. المراة البدينة تنظر الى فى دهشة وأشفاق نظراتها الحائرة تقول لى . انت تكذب . فلماذا ؟ ما الذى يدعو هذه المراة لأن تحملق فى هكذا .. ولست ابنها . ولا حتى أعرفها ؟ لقد عشت لا أبغض شيئا قدر أن يرثى لى

المفرط .. ومعاملتها لى وكاننى شىء هش تكسره هفوة .. وعندما نهض المحامى الكهل الموكل للدفاع عنى تمنيت لو ان أطلق العنان لرغبتى فانطلق مقهقها .. ثمة شىء يثير الضحك فى منظره وهو يقف بجسده النحيل .. وعنقه الذى نفرت عروقه وروبه المتهدل..وقد اطلت من وجهه الشاحب كآبة تندد بالعالم كله .. وأخذ يترافع مناشدا المحكمة بأن بالا تلقى بالا الى اعترافى الأخرق .. حقا اننى قتلتها .. ولكن الامر ليس كما اقول هو الطمع فى استحواذى على التركة .. لأن الطريقة التى ارتكبت بها الجريمة من السذاجة بحيث لاتتناسب أبدا مع تفكير مجرم طامع يرسم خططا .. واستطرد يقول بأننى قتلتها وانا مسلوب الوعى .. وكنت ضحية مؤامرة .. وانطلق يحمل على أعمامى مؤكدا بأن الانصاف يقتضى بأن يكونوا هم الان فى القفص وليس انا.. فقد اقنعونى بعلاقتها التى لم تكن اكثر من حب عفيف بين شاب جامعى نبيل وفتاة مثقفةتواجههاتقاليد عفنة وتنمو حياتها خلف أسوار من قيم عطنة .. اقنعونى بهذا بدافع الحقد المتأصل الذى يكنونه لنا ... ليضربوا عصفورين بحجر واحد تموت هى ويكون السجن مصيرى انا ..وانسان فى مثل شاعريتى وحساسيتى .. سيدفعه تكوينه لا محالة الى الانتحار .. اما الأم فما ايسر الخلاص منها ..وبهذا تقع التركة الضخمة جاهزة فى أيديهم ..

« أهذا هوالمقلب الذى كانتتتحدث هذه الحقيقة .. كيف لم تخطر على بالى .. لم يكن فى خاطرى أمام تصميمهم الا ان مسألة التقاليد هى التى تدفعهم . كيف غابت عنى هذه الحقيقة .. كيف ؟ ! »

واستطرد المحامى يواصل دفاعه .. لقد استغلوا احساسى بأنى كنت دائما موضع سخريتهم لعاطفيتى ورقتى .. فعرضوا على دور بطولة استجبت له بلا وعى وبلا فهم..حيث انطلقت كل الرواسب القديمة .. كل العقد .. تسوقنى من الداخل لأرد أعتبارى فى نظرهم ولو بالجريمة مبررا فعلتى أمام نفسى بأنها ستقتل حتما فمن الأفضل أن تقتل بيدى ! .. ونهضت أطالبه بأن يغلق فمه .. لا يهمنى أن يظهرنى فى وضع الجبان الذى أراد أن يكون بطلا فى نظر الذين كانوا يعايرونه برخاوته لا يهمنى ذلك فهذا لم يخطر على بالى .. ثم انها مسألة تخصنى .. ولكن كيف يؤكد للمحكمة فعلا علاقة اختى بحبيبها .. مهما كانت هذه العلاقة بريئة .. هنا لا يعرفون علاقات بريئة أوغير بريئة.. لا اريدهم يعتقدون بأن هذا هو سبب مصرعها .. اهون عندى أن أموت من ان تلوك الالسنة شرف سلوى .. ولم يهتم المحامى باهانتى وانطلق يضرب على نفس النغمة .. ومن جديد طلب منى الرئيس أن اتقدم .. وتكلمت ..

كذبت كل ما قاله المحامى .. مصرا على أن الدافع فقط هو الطمع فى التركة ..

وعاد المحامى يوضح سبب اصرارى هذا .. ثم قدم للمحكمة دفتر مذكراتى الذى كنت أرصد فيه انطباعاتى ومشاعرى عن الاذلال الذى كنت اعانيه من أبناء عمى منذ كنت صغيرا .. وفى المدرسة .. وفى المجتمعات لأحساسى بأن ثمة شيئا فى سلوكى يثير دهشة الآخرين .. وقد وضع خطوطا حمراء تحت العبارات التى كتبتها فى فترة الصراع النفسى التى سبقت الجريمة وهى تؤكد فى نظره دور أعمامى فيها .. والدوافع المتشابكة التى ساقتنى لقتل الانسانة التى أعبدها .. وختم مرافعته مناشدا المحكمة بأن تضع كل تلك الملابسات فى اعتبارها ! .. ورفعت الجلسة للمداولة ..

عزم على الشرطى الأسود الذى يقف ببندقيته أمام قفصى بسيجارة فاعتذرت شاكرا .. مازلت المرأة البدينة تنظر نحوى وتوشك الدموع ان تطفر من عينيها .. ومازلت حلمة ثديها فى فم رضيعها .. كلما ازاحت فمه عن ثديها انطلق صراخة فتسكته بوضع الحملة من جديد فى فمه .. أمى .. لماذا لم تأت أمى .. لماذا ؟ ..

وعادت هيئة المحكمة .. ونطق الرئيس بالحكم الذى يقضى بادانتى عشر سنوات مع الأشغال لأن المحكمة وضعت فى اعتبارها الظروف المحيطة بالجريمة ..

عشر سنوات .. فى السجن ! .. زايلتنى رباطة جأشى .. شعرت بالانهيار والضياع .. عشر سنوات يطاردنى دم سلوى .. وتهمس فى اذنى .. « مالك ياوجدى » عشر سنوات .. أمى .. لماذا لم تأتى .. غفرانك يا أمى قتلتها لك .. ولست مجرما .. صدقينى يا ماما .. لست مجرما .. وانطلقت دموعى .. والمرأة البدينة .. منذ لحظات كانت نظراتها تلدغنى .. الان أريدها .. تقول لى نظراتها بأن هناك من يشفق على ويتألم لمصيرى .. والتقت عيناى بعينيها كانت الدموع تنهمر على خدها .. والرضيع يمتص ثديها .. لكم أود أن اعانقها .. أن اغفو عن ضياعى لحظة واحدة بين أحضانها .. ودنت تهمس فى اذنى :

ـ ولدى .. الله معك ..

ـ سيدتى .. لست مجرما ! ..

ـ أنا لا أفهم شيئا .. ولكن .. قلبى يقول لى هذا !!

جاء عمى فى هذه اللحظة .. وعندما اقترب من القفص كانت بصقتى قد تناثر رذاذها فوق ذقنه كرغوات صابون صغيره ..

ـ سيدتى .. هل تعرفين أمى .. قولى لها أن تغفر لى ..

نظرت الىّ طويلا وانخرطت تبكى ..

ـ يمكنك يا ولدى ان تعتبرنى أمك ! ..

نظرت اليها وفهمت .. لم أجد دمعة واحدة .. وامتدت يد المرأة تلامس جبهتى .. وفتح الحارس القفص وأخرجنى ودفعونى الى عربة كانت فى الانتظار .. !!